المعلم الناجح من يستشعر ذكاء طلابه!

فاطمة سمير خليل الفلاح

المعلمة فاطمة الفلاح.

قصص مبعثرة وأحاديث تتناقل، لم أكن أعرف أنني جزء منها، لكن في ذلك اليوم سمعت أطراف الحديث الذي أصبح نقطة تحول في حياتي؛ لأنه كان آخر ما أتذكره من طفولتي، أو لأنه أجمل موضوع أحب أن أتذكره. بدأت القصة وعمري آنذاك خمس سنوات، سمعت أمي وإحدى جاراتنا تتحدثان: فاطمة سجلناها بالحكومة، تحمست وشعرت أنه يمكنني الطيران من شدة الفرح. لكن ما هي «الحكومة»، ليس مهماً، أكيد مكان جميل للعب والفرح. في ذلك اليوم لم أنسَ الخطط والتخيلات التي عشتها في بناء هذا المكان المجهول.

لم أعرف كيف مرت الأيام وبدأ العام الدراسي، كان لي وقت طويل، وأنا أخطط، كيف يمكن أن يكون لي أصدقاء، استعنت بخبرة أخواتي الأكبر، أتذكر أختي «فاتن» نصحتني عندما تقابلين بنتاً اسألها: تصاحبينني؟ تخيلت وقتها أنه إذا ما كان لي أكثر من صديقة ستكون المدرسة مملة.

أتذكر اليوم الأول؛ كأنه البارحة، أختي الكبيرة أدخلتني صفي، والمعلمة رحبت بها؛ لأنها كانت معلمتها وتعرفها. أول ما تحدثت مع بنات في الصف سألتهن: أنتم زمان إلكم في الحكومة؟ ضحكن، ثم قلن: «على أي حكومة هذه مدرسة». قلت لهن: «أمي حكت إنها سجلتني بالحكومة، أمي ما بتضحك عليّ، ومن بعدها ما سألتهم حتى آخر الدوام». ولم يتحدث إلي أحد، وعند انتهاء الاستراحة كنت ما زلت أنتظر أن تأتي أي طالبة، وتعقد معي صداقة، كيف يمكن أن أعود إلى البيت ولم أجمع عدداً من الصديقات؟

في نهاية اليوم الدراسي، استجمعت شجاعتي، وبدأت أسال الطالبات واحدةً واحدةً في الصف: تصاحبينني؟ كن ينظرن لي باستغراب ويسكتن. لكن أخيراً صادفت طالبة سألتها: تصاحبيني؟ فوافقت، لم أصدق نفسي، كانت لحظة انتصار، لم أعرف حتى الآن، ما الذي كانت تعنيه هذه اللحظة. فور عودتي للبيت، سالت أمي: لماذا لم أسجل بالحكومة؟ أجابت: «أنت سجلت بمدرسة حكومية».

كانت المرة الأولى في حياتي التي أعرف فيها أن هناك أنواعاً للمدارس، كنت أعتقد أن جميع الأطفال يذهبون إلى المدرسة نفسها، ويتعلمون التعليم نفسه، ويجتمعون في مكان واحد. في تلك الفترة، كنت أعتقد أن العالم هو فقط حولي، ولا يوجد آخرون.

معلمتي في الصف الأول كانت رائعة -رحمها الله- تركت في نفسي أثراً جميلاً، لا يمكنني نسيانه في تلك المرحلة، كان الصف

عالمنا، منه نتعلم، ونتحدث، ونتناقش، وهو أكثر صف أثّر في، وفي شخصيتي.

تعلمت من معلمتي الانتماء إلى الصف والمدرسة. في يوم من الأيام، أحضرت مزهرية من الورود الملون، و«شرشف مزركش» جميل لطاولتها، أتذكر هذه المزهرية، كأنها أجمل ما رأيت في حياتي، كانت ترتب صفنا يومياً، وتهتم بأن نكون الصف المهذب النظيف.

كنا جميعاً نحبها، ونحترمها، علمتنا القراءة والتهجئة السليمة، الجميع كان يعرف القراءة، لم أكن أتخيل أي أحد لا يمكنه التهجئة؛ لأنها كانت مثل الساحرة تجذبنا للحصة، وتحفزنا على الاستمرار بالقراءة، أصبح لي عالم غير بيتي، كل درس درسته معها، كل حرف كان له قصة، لم أكن أريد أن أنتقل إلى مرحلة ثانية، ومعلمة جديدة. وعلى الرغم من ذلك، كانت دائماً تذكرنا بأننا سنكبر ولا نعود نتذكرها، ولكنها اليوم مخطئة؛ لأنني ما زلت أتمنى أن يعود الزمن إلى الوراء، وأخبرها أنها حية في قلبي ولم أنسها.

مرّت أيام الابتدائية في تلك المرحلة، تغير كل شيء، وأصبحت المدرسة عالماً أوسع. قد أكون أنا من شعرت أنني أعرف أكثر، ويمكن الاعتماد على نفسي، فقد أصبحت لي خبرات وتجارب، ولم يعد همي الوحيد عدد الصديقات، أو اسم المدرسة ونوعها، ولكن برزت أمامي مخاوف جديدة.

في الصف الخامس، جميع طلاب المدرسة حُذِّروا من معلمة اللغة الإنجليزية، أتذكر هذه المرحلة جيداً، وكانت بداية تعلم اللغة الجديدة، مع ذلك لم يكن لي مشكلة في الحروف أو التهجئة، فقد زال خوفي من اللغة، بمجرد تعلمها والتدرب على كتابتها، ولكن اكتشفت لاحقاً، أن الصدمة حصلت لي عندما بدأت أقرأ أول مرة اللغة الإنجليزية، كانت عندما قرأت حول كأس «صنعت في فرنسا».

أصابتني الدهشة، وتساءلت معقول صنعت في فرنسا، لماذا؟ المفروض أن تكون صنعت في فلسطين. لكنها لم تكن هذه مشكلة بلادنا، والمفروض أن لا تكون مشكلتي أيضاً، أو هذا ما اكتسبته مما حولي.

لا أدري إن كان هذا الصراع في حياتي أثر في كوني معلمة لغة إنجليزية؟ في نهاية هذه المرحلة، تغيرت للأسوأ وأعترف بذلك. لم أكن أحب المدرسة كثيراً، ولم يكن يجذبني لها أي شيء يذكر، غير أنها أيام تمضي، ويجب أن أتعايش معها.

كان مفروضاً علينا في المدرسة وقتها نظام الدوامين الصباحي والمسائي، لا أتمنى لأحد أن يتعايش مع مثل تلك الأنظمة، من أجل حل مشكلة الاكتظاظ في المدرسة، لكنها تركت جيلاً يكره موعد المدرسة والحصة، ويعاني إن كان في دوامه صباحاً كان أم مساءً.

تجاوزت المرحلة الإعدادية، ولا أتذكر منها الكثير، لم أكن قد خططت لمستقبلي، إلا أنني كنت أسمع أبي وهو يتحدث بأنني «يجب أن أكون طبيبة». فقلت في نفسي: طبيبة، ما في مشكلة لوقتها بنفكر. لم أعرف لماذا كنت في حالة من الغيبوبة الفكرية، التي كانت تسيطر علي. قد يكون سببها أنني لم أسمع أياً من طالبات صفي، تفكر ما الذي ستكونه في المستقبل. ولم يكن هناك حوار أو حديث من قبل المعلمات حول الموضوع. زيارة واحدة لمعرض في المدرسة الصناعية، جعلني أبدأ بالتفكير من جديد حول من أنا؟ وكيف سأكون بعد انتهاء المرحلة الإعدادية؟

كنت أشعر بحالة من الملل من التعليم العادي، فلاحظت تخصص صيانة حاسوب وميكانيكا سيارات، حيث كان تخصصاً جديداً وغريباً علي، وعلى الجميع، وقتها فكرت بكسر الروتين والثورة على التقاليد، اخترت أن أدرس صناعي، وتخصص ميكانيكا سيارات، وتناقشت مع أهلي في الموضوع، فكان طبيعياً أن يرفضوا الفكرة، وكان من الطبيعي أن أرضخ لأمرهم وألغي ما أريد.

فكرت وأنا في الصف العاشر أن أدرس تخصص زراعة، فقد أصبح مهندسة زراعية، ولكن عاد الرفض وتكرر الرضوخ للسلطة الأبوية. أذكر فترة الصراع الذي عشته مع ذاتي، أريد أن أدرس وأعمل ما أحب، ولكنني درست تخصص علوم إنسانية أو كما تسمى، ولكنها لم تراعِ من إنسانيتي إلا الحفظ والتسميع للنجاح في الامتحان. لم يعد لي هدف، فكانت شهادة الثانوية العامة، ليس لها حاجه في نفسي.

في مرحلة عمرية سابقة كنت أشعر أنني أمتلك الدنيا وبإمكاني الطيران، لكن أصابني الإحباط من الجامعة وأساليب التدريس فيها، يمكن أن تكون المشكلة في ذاتي، وليس في الجامعة. تخرج جامعات الوطن كل سنة مئات الآلاف، ولو كان العيب فيها، لثأر مرة فوج من هؤلاء الخرجين، وغيّر النظام للأفضل، ومنع الاحباط الذي يصيب الخريجين الآخرين.

كان حلمي دراسة الخدمة الاجتماعية، ومساعدة الناس والتعاون وتعزيز الانتماء، والعديد من هذه الشعارات كانت تأتيني دوماً، وحين بدأت الدراسة بكامل طاقتي، لأني كنت أدرس ما أحب وأستمتع به، لكن حدث ما حدث وانتقلت إلى تخصص لغة إنجليزية!

وبعد التخرج من الجامعة، بدأت رحلة البحث عن عمل في أول مدرسة قدمت لها، تم قبولي، لا يمكن أن أنسى أول حصة لي في المدرسة، وقفت أمام الطلاب حييتهم وتحدثنا عن الحروف

في درس تقليدي، لكن كنت بحاجة إلى أحد يدعمني، شعرت أن الطلاب تجاوبوا معي، في تلك الفترة رضيت عن نفسي وعن دوري داخل غرفة الصف.

في أول حصة، كنت في كل دقيقة أتوقع المديرة تدخل من الباب، ولكنها لم تتدخل بما أعلم؟ وماذا أعلم؟ حتى دفتر التحضير، لم تقرأه، اهتمت فقط بصحة التاريخ واليوم، دون أي تعديل، وقالت: «المهم دفتر التحضير، وبالنسبة للمفتشين، ما تقلقي إحنا ما حد بوصلنا من المديرة». قلت في نفسي: لا يمكن تكرار الطريقة نفسها في التدريس يومياً، أريد فرصة ثانية وطريقة ثانية.

حصولي على فرصة ثانية، كان يعني الكثير، يمكن اعتبار أنها أول حصة حقيقية درستها؛ لأنه حضر الحصة الموجه والمديرة، شعرت وقتها بثقة وشرحت الدرس، وقمت بتوظيف وسيلة تعليمية؛ لتوضيح التغير على الجمل، وحاولت إدخال لعبة، حتى يستوعب الطلاب، طريقة الحل، وأعطيتهم فرصة لمحاولة الحل وحدهم.

في نهاية الحصة، علّق الموجة والمديرة، وبين لي نقاط الضعف والقوة في الشرح وأخطاء التحضير. ربما كان أهم شيء وقتها بالنسبة لي هو «دفتر التحضير»؛ لأن التحضير الناجح يساعد المعلم أن يبدع في حصته، أما الآن الأهم هو المعلم، وكيف يتعامل مع طلابه، ويجعل من طلابه فضاء للتدريس وللتعلم داخل غرفة الصف.

شعرت وقتها أنني في الطريق الصحيح، وبدأت أحب التعليم والأطفال، درَّست مراحل عمرية مختلفة، أشعر بمتعة، عندما يستطيع طالب استنتاج إجابة أو عند طرح سؤال عبقري، فأبحث عن جوابه، ولا أستطيع أن أنسى عندما أخبرني طالب: «تخيلي نفسك ولداً صغيراً واركضي معنا بتنبسطي». وقتها شعرت أن الطلاب بحاجة إلى من يفهمهم ويفهم عالمهم قبل أن يعلمهم. من أجمل اللحظات، حين وقف طالب أمام الجميع وقال لي: «أنتِ الوحيدة في الدنيا، التي تعرفين بأنني ذكي». قلت له: طبعاً «أنتَ ذكي»، كل طالب له ذكاؤه الخاص، والمعلم الناجح هو الذي يستشعر ذكاء طلابه.

روضة سمارت كيدز/القدس

المعلمة فاطمة فلاح خلال مشاركتها في أحد لقاءات الدراما في التعليم مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.